

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ثَمَرَاتُ الْإِيمَانِ

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم علّمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علّمنا وزدنا علماً ، وأصلح لنا شأننا كله ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ، اللهم يا ربنا زيّنا بزينة الإيمان واجعلنا هداةً مهتدين ، اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادةً لنا في كل خير ، والموت راحةً لنا من كل شر . أما بعد :

حديثنا -معاشر الكرام- عن «الإيمان وثمراته» ؛ والإيمان هو أهم المطالب وأجل المقاصد وأعظم الغايات ؛ بالإيمان يفوز العبد برضا الرحمن ، وبالإيمان نجاته من سخطه جل في علاه ، وبالإيمان رفعة درجاته وصلاح أعماله ، وبالإيمان يفوز بكل خير وفضيلة في دنياه وآخره ، وبالإيمان نجاته من الشرور والمهالك .

والإيمان شجرة مباركة ؛ كثير خيرها ، متنوع ثمرها ، غزيرة فوائدها ، عظيمة بركاتها ، قال الله تعالى : ﴿لَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: 24-25] ؛ وهذا مثل عظيم ضربه الله سبحانه وتعالى لبيان الإيمان وشجرته العظيمة المباركة ، وأن هذه الشجرة -شجرة الإيمان- لها أصل ثابت وفرع قائم وثمار عديدة متنوعة ، شجرة الإيمان تؤتي كل حين أطيب الأكل وجميل الثمر وحسن وطيب الجنى ، فهي شجرة مباركة ، وكلما قوي الإيمان في قلب العبد وعظمت عنايته به عظم نصيبه من ثمار الإيمان وفوائده المتنوعة .

ومن يطالع القرآن كتاب الله سبحانه وتعالى يجد في مواطن كثيرة منه بياناً لثمار الإيمان المتنوعة ، حتى قال ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه «الداء والدواء» لما أشار إلى فوائد الإيمان وكثرتها قال : «وللإيمان نحو من مئة فائدة» ثم أشار إلى جملة منها رحمه الله تعالى ذاكراً مع كل فائدة دليلها من كتاب الله جل وعلا وسنة رسوله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه . والحديث عن ثمار الإيمان وفوائده حديثٌ يطول لكنني أشير بإشارات مختصرة لبعض فوائد الإيمان وثماره العظيمة .

فمن ثمار الإيمان : الفوز بولاية الله سبحانه وتعالى الخاصة ، كما قال الله جل وعلا : ﴿الْأَوَّلِينَ أَوْلَايَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿[يونس: 62-63] فبالإيمان يفوز العبد بهذه الولاية ، وهذه الولاية الخاصة لها ثمرات وآثار عظيمة ؛ أقرأها أو أقرأ أعظم ما يكون منها في الآية الثانية بعد آية الكرسي

حيث قال الله سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: 257] ، هذه ثمرة عظيمة جدًا لولاية الله سبحانه وتعالى لعبده المؤمن ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ ؛ ظلمات المعاصي إلى نور الطاعات ، ظلمات الجهل إلى نور العلم ، ظلمات الأهواء إلى اتباع الهدى ولزوم شرع الله سبحانه وتعالى ، ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ الظلمات كثيرة ومسالك الردى متنوعة ، وإذا صار العبد في ولاية الله سبحانه وتعالى صانه الله وحفظه وكأله برعايته وعنايته سبحانه وتعالى .

ومن ثمار الإيمان العظيمة: أن المؤمن في كل أحواله وجميع تقلباته ماضٍ من خير وإلى خير ؛ في المسار والأمر الحزنة ، في الأفراح والمصائب ، في النعم والشدات ، في كل أحواله هو متقلب في خير ، وهذا التقلب في الخير إنما هو خاصٌ بالمؤمن فقط ولهذا يقول نبينا صلوات الله وسلامه وبركاته عليه : ((عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ)) ؛ فالمؤمن في الأمور السارة من نعم ومنن وعطايا متنوعات يستشعر أن هذه النعم محض فضل الله عليه ومنه سبحانه وتعالى ، فيتلقى نعم الله بشكر المنعم جل في علاه حامدًا مثنيًا ذاكراً نعمة الله سبحانه وتعالى عليه مستعملًا للنعمة في طاعة المنعم جل وعلا ، وإن أصابته ضراء من مصيبة أو أمر محزن أو شدة أو نحو ذلك تلقاها بالصبر ، ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿ [البقرة: 155-156] وهذا لا يكون إلا للمؤمن ، إذ الإيمان يحمل المؤمن في سرائه على شكر المنعم جل في علاه ، وفي ضرائه على الصبر على قضاء الله وقدره ، ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: 11] قال بعض السلف : «هي المصيبة تصيب المؤمن فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم» .

ومن ثمار الإيمان العظيمة : أن الأعمال كلها لا تصح إلا به ؛ فهو الذي يصحح الأعمال ، وبدونه مهما كثرت الأعمال وتنوعت لا تُقبل من العامل ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: 23] ، ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ [التوبة: 54] ، ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: 5] ؛ ولهذا تجد في آيات كثيرة يُذكر الإيمان قيدًا لا يُقبل العمل إلا به ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ يعني بهذا القيد ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ [الأنبياء: 94] ، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: 97] ، بهذا القيد ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ ، ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بهذا القيد ﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: 19] ،

ولهذا نظائر كثيرة جدا في القرآن ، فالأعمال لا تصح ولا تزكو ولا تطيب إلا به ؛ كيف لا ! وهو الأصل الذي عليه قيام شجرة الإيمان والأساس الذي تبنى عليه هذه الشجرة المباركة .

ومن ثمار الإيمان العظيمة : أنه ملجأ للمؤمن في كل أحواله ؛ فهو يلجأ إلى الإيمان في المصائب والأفراح ، ويلجأ إلى الإيمان في الأمن والخوف ، ويلجأ إلى الإيمان في الطاعة والمعصية ، ثم في ضوء النهج الذي يكون بهذا الإيمان يسير العبد المؤمن ، يسير بهدايات الإيمان ؛ ولهذا الإيمان يُعد هاديًا للعبد ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس: 9] ، ولهذا الإيمان له هدايات ، فهو ملجأ للمؤمن يهتدي بهدايات الإيمان في كل ملئاته وجميع أحواله ، وليتضح الأمر أضرب أمثلة :

الإيمان ملجأ في الأمن والخوف ؛ إذا كان المرء في أمن يحيا حياة آمنة مطمئنة ، لا يحمله هذا الأمن على البطر والأشر ونحو ذلك من الخصال الذميمة ، بل يحمله هذا الأمن على عبادة هذا المنعم وشكر هذا المنعم والاعتراف بمنته سبحانه ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: 2-3] ، فالأمن منة من الله سبحانه وتعالى تستوجب من العبد الأمن المطمئن أن يقبل على من أنعم عليه بهذا الأمن وتفضل عليه بهذا الأمن سبحانه وتعالى فيعمل على طاعة الله جل وعلا وحسن التقرب إليه جل في علاه .

وفي حال الخوف والشدة أيضا يفرع إلى الإيمان ؛ فبالإيمان ينال العبد الأمن وزوال الخوف ، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُوا بِي شَيْئًا﴾ [النور: 55] ، فالمؤمن إذا كان في خوف يفرع إلى الإيمان فيهديه الإيمان إلى اللجأ إلى الله وصدق الضراعة إلى الله سبحانه وتعالى واعتقاد أن أمنه بيد الله وزوال خوفه بيد الله وأن الملك ملك الله سبحانه وتعالى ؛ فيطلب أمنه من الله ملتجئًا إليه صادقًا ، فيهيء الله جل وعلا له من أبواب التيسير وتحقق الأمن من حيث يحتسب العبد أو من حيث لا يحتسب .

وفي حال الطاعة والمعصية ؛ المؤمن يفرع إلى الإيمان ويهتدي بهدايته العظيمة ، فإذا كان المؤمن على طاعة ووفق لعبادة ، ووفق لصيام ، ووفق لذكر وقراءة قرآن ، ووفق لأعمال بر وإحسان ، كل هذه الأعمال يهديه إيمانه إلى أن لا ينظر إلى نفسه معجبًا بها وأنها فعلت وفعلت لا ينظر ، بل ينظر في هذا الباب إلى محض تفضل المنعم عليه سبحانه وأنه لولا منة الله عليه ومعونته جل في علاه وإلا لما قام بهذه الطاعة ولما تيسرت له تلك العبادة ، ﴿وَلَوْ لَا

فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مِنْ يُشَاءُ﴾ [النور: 21] ، قال تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مِنْ يُشَاءُ﴾ [النساء: 49] وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ

الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7) فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿ [الحجرات: 7-8] ، فالفضل فضل الله والمنة منة الله جل في علاه ، هو وحده جل وعلا المان والمنعم والمتفضل جل وعلا .

فإذا كان العبد في طاعة يهديه هذا الإيمان إلى النظر إلى أن هذا من فضل الله عليه ، نبينا عليه الصلاة والسلام كان مع الصحابة يقولون يوم الأحزاب «لولا الله ما اهتدينا ولا صمنا ولا صلينا» ، فالمؤمن في كل طاعة يقوم بها يستحضر هذا المعنى وأنه لولا فضل الله عليه لما قام بهذه الطاعة؛ فيحمله ذلك على حمد الله سبحانه وتعالى ، ثم ينظر إلى نفسه نظراً آخر وهو أنه مهما اجتهد في تكميل الطاعة والعبادة لا يزال مقصراً في جنب الله وحقه جل في علاه ، ولهذا شرع لنا عقب الصلاة في كل مرة أن نستغفر ثلاث مرات ، وقيل في الحكمة من ذلك: أن هذا الاستغفار يجبر ما يكون في هذه الصلاة من تقصير أو نقص أو خلل أو نحو ذلك ، فهذه هداية الإيمان في الطاعة .

أيضاً الإيمان يهدي العبد في المعصية ؛ إذا تحركت نفس المرء للوقوع في معصية من المعاصي أو ذنب من الذنوب يهديه إيمانه إلى المراقبة والخوف من الله واستحضار اطلاع الله عليه ورؤية الله له ، يحمله إيمانه على الحياء من الله ((اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ)) ، يحمله إيمانه على الخوف من عقوبة الله ، يحمله إيمانه إلى النظر في العواقب المؤلمة التي تُعقبها المعاصي التي تسخط الله تبارك وتعالى ، يحمله إيمانه على إدراك أن لذة المعصية هي لذة سريعة وفانية وزائلة لكن عواقبها الوخيمة ومضارها على العاصي في الدنيا والآخرة كثيرة ، فيهديه إيمانه إلى خطورة المعصية وعظم العصيان ، فتجده ينكف ويرتدع ويمنع نفسه عن أن تدخل في المعصية ، وهذا من هدايات الإيمان العظيمة لعبد الله المؤمن ؛ ولهذا المؤمن قد يفاجئ في بعض طرقه وسيره يفاجئ بطريق منحرفة كاد أن يدخل بها لكن الذي يحجزه بفضل الله عليه الإيمان وهدايات الإيمان العظيمة ، فإنها تمنعه وتكفه من أن يقع في المعصية .

ولهذا فإن الإيمان يعد ملجئاً لعبد الله المؤمن في أموره كلها ؛ في المصائب والأفراح ، في الطاعات والمعاصي ، في الأمن والخوف ، في جميع أحواله يفزع إلى الإيمان ثم يهتدي بهدايات الإيمان كما مر معنا في الآية الكريمة ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس: 9] فالإيمان له هدايا عظيمة وجليلة ومتنوعة وكثيرة فيهدي العبد المؤمن بهدايات الإيمان العظيمة .

من ثمار الإيمان : أن الجنة لا دخول لها إلا به ، وقد أرسل النبي عليه الصلاة والسلام عدداً من أصحابه في حجة الوداع بأنه لن يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة؛ فلا دخول لجنات النعيم ولا فوز برضا الرب العظيم إلا بالإيمان ولزومه والاستمسك به ، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 72] وعدهم تبارك وتعالى بالإيمان والفوز بجنات النعيم والفوز برضا الله سبحانه وتعالى والمسكن الرفيع في جنات النعيم ، وجاء في القرآن آيات كثيرة رُتب فيها دخول الجنات على الإيمان ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ

نُزُلًا ﴿[الكهف:107] ، ﴿إِنِّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (31) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (32) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ [البقرة:31-33] والآيات في هذا المعنى كثيرة .

ومن فوائد الإيمان : أنه لا نجاة من النار وسخط الله إلا به ؛ فإن كان إيمانًا كاملاً كانت به نجاة من دخول النار ، وإن كان ضعيفًا ناقصًا كانت نجاة من الخلود فيها .

وكما أشرت هي فوائد كثيرة للإيمان وعديدة ومتنوعة لكن هذه إشارة ، ويمكن لطالب العلم أن يقرأ في فوائد الإيمان ما كتبه الإمام عبدالرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله في كتابه الجميل العظيم «التوضيح والبيان لشجرة الإيمان» .

أسأل الله عز وجل أن يزيننا أجمعين بزيينة الإيمان ، وأن يجعلنا هداة مهتدين ، وأن يصلح لنا شأننا كله وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ، وأن يغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات، وأسأله جل وعلا أن يغنمنا خيرات رمضان وبركاته بمنه وكرمه .

سبحانك اللهم ، وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلّ وسلّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .